115534 - مفهوم المساواة في " الإسلام "

السؤال

ما مفهوم المساواة في " الإسلام " ؟ .

الإجابة المفصلة

لفظ " المساواة " يحوي حقاً وباطلاً ، وهو لفظ مشترك في الخير والشر ، وأكثر من يستعمله وينادي به الآن إنما يريد الباطل والشر الذي فيه ، فاستعمالهم له إنما هو لجعل الناس سواسية متساويين لا يفرق بينهم بسبب الدين ، ولا الجنس ، فنادوا بمساواة المرأة بالرجل في كافة المجالات حتى تلك التي من خصائص الرجال ، كما نادوا بالمساواة في المواطنة ، وأنه لا ينبغي أن يكون الدين مفرقاً بين الناس ، فجمعوا بين الموحد والمشارك ، والمسلم والوثني ، وجعلوهم في سياق واحد ، لا يفرق الدين بينهم .

وأما الخير والحق الذي في هذا اللفظ فهو أن المسلمين متساوون أمام الشرع في أحكامه ، وتكاليفه ، فلا يفرق بين شريف ووضيع في إقامة الحدود ، ولا بين الرجل والمرأة ، إذا جاء أحدهم بما يستحق به جلدًا ، أو رجماً ، أو قتلاً ، وقد جاءت أمثلة عملية على ذلك ، فحين سرقت امرأة من قبائل العرب الشريفة ، واستحقت قطع يدها : جاء من يشفع لها عند النبي صلى الله عليه وسلم ، فغضب ، وقال : (إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ) متفق عليه ، وعندما عير صحابي آخر بأمه السوداء : غضب الرسول صلى الله عليه وسلم وقال له : (إِنَّكَ أَمْرٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ) متفق عليه.

كما أن من أوجه المساواة بين الرجل والمرأة : الوعد في الآخرة بالثواب ، والجنة ، قال الله تعالى : (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) النحل / 97 .
هذا هو المعنى الحق الذي في هذا اللفظ ، وليس هذا ما يريده من ينادي بالمساواة .

: (هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا
لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا) الأعراف/ 189 ، وقال تعالى : (خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ
وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا) الزمر/ 6 .

....

قد دلت هذه الآيات القرآنية المذكورة على أن المرأة الأولى كان وجودها الأول
مستنداً إلى وجود الرجل وفرعاً عنه ، وهذا أمر كوني ، قدرني ، من الله ، أنشأ المرأة
في إيجادها الأول عليه .

وقد جاء الشرع الكريم المنزل من الله ليعمل به في أرضه بمراعاة هذا الأمر الكوني
القدرني في حياة المرأة في جميع النواحي ، فجعل الرجل قائماً عليها ، وجعلها مستندة
إليه في جميع شؤونها كما قال تعالى : (الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ) النساء/
34 .

فمحاولة استواء المرأة مع الرجل في جميع نواحي الحياة : لا يمكن أن تتحقق ؛ لأن
الفوارق بين النوعين كوناً وقدرراً أولاً ، وشرعاً منزلاً ثانياً : تمنع من ذلك
منعاً باتاً .

ولقوة الفوارق الكونية والقدرية والشرعية بين الذكر والأنثى : صحَّ عن النبي صلى
الله عليه وسلم أنه لعن المتشبه من النوعين بالآخر .

ولا شك أن سبب هذا اللعن هو محاولة من أراد التشبه منهم بالآخر ، لتحطيم هذه الفوارق
التي لا يمكن أن تتحطم .

وقد ثبت في صحيح البخاري من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال : (لعن رسول الله
صلى الله عليه وسلم المشتهبين من الرجال بالنساء والمتشبهات من النساء بالرجال)
وقد قدمنا هذا الحديث بسنده في سورة " بني إسرائيل " ، وبيننا هناك أن من لعنه رسول
الله صلى الله عليه وسلم فهو ملعون في كتاب الله ، فلو كانت الفوارق بين الذكر
والأنثى يمكن تحطيمها وإزالتها : لم يستوجب من أراد ذلك اللعن من الله ورسوله .
ولأجل تلك الفوارق العظيمة الكونية والقدرية بين الذكر والأنثى فرَّق الله جل وعلا
بينهما في الطلاق ، فجعله بيد الرجل دون المرأة ، وفي الميراث ، وفي نسبة الأولاد
إليه .

وفي تعدد الزوجات دون الأزواج : صرح بأن شهادة امرأتين بمنزلة شهادة رجل واحد في
قوله تعالى : (فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ) البقرة/ 282 .

فالله الذي خلقهما لا شك أنه أعلم بحقيقتهما ، وقد صرح في كتابه بقيام الرجل مقام
امرأتين في الشهادة .

وقد قال تعالى : (أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَى . تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى)
النجم/ 21 ، 22 ، أي : غير عادلة ؛ لعدم استواء النصيبين ، لفضل الذكر على الأنثى .
ولذلك : وقعت امرأة عمران في مشكلة لما ولدت مريم ، كما قال تعالى عنها :
فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا
وَضَعْتُ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى) آل عمران / 36 ، فامرأة عمران تقول : (وَلَيْسَ
الذكر كالأنثى) ، وهي صادقة في ذلك بلا شك .
والكفرة وأتباعهم يقولون : إن الذكر والأنثى سواء .
ولا شك عند كل عاقل في صدق هذه السالبة ، وكذب هذه الموجبة .
وقد أوضحنا في سورة " بني إسرائيل " في الكلام على قوله تعالى : (إِنَّ هَذَا الْقُرْآنُ
يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ) الإسراء/ 9 وجه الحكمة في جعل الطلاق بيد الرجل ،
وتفضيل الذكر على الأنثى في الميراث ، وتعدد الزوجات ، وكون الولد ينسب إلى الرجل ،
وذكرنا طرفاً من ذلك في سورة " البقرة " في الكلام على قوله تعالى : (وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ) البقرة/ 228 ، وبيّنا أن الفوارق الطبيعية
بينهما كون الذكورة شرفاً وكمالاً وقوة طبيعية : خلقية ، وكون الأنوثة بعكس ذلك .
وبيّنا أن العقلاء جميعاً مطبقون على الاعتراف بذلك ، وأن من أوضح الأدلة التي بينها
القرآن على ذلك اتفاق العقلاء على أن الأنثى من حين نشأتها تجلى بأنواع الزينة من
حلي وحلل ، وذلك لجبر النقص الجبلي الخلقى الذي هو الأنوثة كما قال الشاعر :
وما الحلي إلا زينة من نقيصة ... يتمم من حسن إذا الحسن قصرا
وقد بيّنا أن الله تعالى أوضح هذا بقوله : (أَوَمَنْ يُنَشَأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ
فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ) الزخرف/ 18 ، فأنكر على الكفار أنهم مع ادعاء الولد له
تعالى جعلوا له أنقص الولدين ، وأضعفهما خلقة ، وجبلة ، وهو الأنثى ، ولذلك نشأت
في الحلية من صغرها ؛ لتغطية النقص الذي هو الأنوثة ، وجبره بالزينة ، فهو في
الخصام غير مبين .
لأن الأنثى لضعفها الخلقى الطبيعي لا تقدر أن تبين في الخصام إبانة الفحول الذكور ،
إذا اهتضمت وظلمت لضعفها الطبيعي .

....

وأما الذكر فإنه لا ينشأ في الحلية ؛ لأن كمال ذكورته ، وشرفها ، وقوتها الطبيعية
التي لا يحتاج معه إلى التزين بالحلية التي تحتاج إليه الأنثى : لكماله بذكورته ،
ونقصها بأنوثتها .

ومما لا نزاع فيه بين العقلاء أن الذكر والأنثى إذا تعاشرَا معاشرَة البشرية

الطبيعية التي لا بقاء للبشر دونها : فإن المرأة تتأثر بذلك تأثراً طبيعياً كونياً قدرتها مانعاً لها من مزاوله الأعمال ، كالحمل ، والنفاس ، وما ينشأ عن ذلك من الضعف ، والمرض ، والألم ، بخلاف الرجل : فإنه لا يتأثر بشيء من ذلك . ومع هذه الفوارق لا يتجرأ على القول بمساواتهما في جميع الميادين : إلا مكابر في المحسوس ، فلا يدعو إلى المساواة بينهما إلا من أعمى الله بصيرته .

” أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن ” (473 / 7 – 475) .

وقال الشيخ محمد بن صالح العثيمين - رحمه الله - :
دين الإسلام : دين العدل في العمل ، والجزاء ، وانتبه ” دين العدل في العمل ، والجزاء ” وليس كما يقول المحدثون : ” إنه دين المساواة ” ، هذا غلط عظيم ، لكن يتوصل به أهل الآراء والأفكار الفاسدة إلى مقاصد ذميمة ، حتى يقول : المرأة والرجل ، والمؤمن والكافر : سواء ، ولا فرق ، وسبحان الله ، إنك لن تجد في القرآن كلمة ” المساواة ” بين الناس ، بل لا بدّ من فرق ، بل أكثر ما في القرآن نفي المساواة : (قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون) وآيات كثيرة ، فاحذر أن تتابع ، فتكون كالذي ينطق بما لا يسمع إلا دعاءً ونداءً ، بدلاً من أن تقول : ” الدين الإسلامي دين مساواة ” قل : ” دين العدل الذي أمر الله به ، يعطي كل ذي حق حقه ” ، رأيت المرأة مع الرجل في الإرث ، وفي الدية ، وفي العقيقة ، وفك الرهان ، يختلفون ، وفي الدين : المرأة ناقصة ، إذا حاضت لم تصل ، ولم تصم ، وفي العقل : المرأة ناقصة : شهادة الرجل بشهادة امرأتين ، وهلمّ جرّاً ، والذين ينطقون بكلمة ” مساواة ” : إذا قررنا هذا ، وأنه من القواعد الشرعية الإسلامية : ألزمونا بالمساواة في هذه الأمور ، وإلا لصرنا متناقضين ، فنقول : دين الإسلام هو دين العدل ، يعطي كل إنسان ما يستحق ، حتى جاء في الحديث : (أقيلووا ذوي الهيئات عثراتهم إلا الحدود) يعني : إذا أخطأ الإنسان الشريف الوجيه في غير الحدود : فاحفظ عليه كرامته ، وأقله ، هذا الذي تقيله إذا كان من الشرفاء ، إقالتك إياه أعظم تربية من أن تجلده ألف جلدة ؛ لأنه كما قيل : الكريم إذا أكرمته : ملكته ، لكن لو وجد إنسان فاسق ماجن : فهذا اشدّ عليه العقوبة ، وعزره ، ولهذا لما كثر شرب الخمر في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ضاعف العقوبة بدل أربعين جعلها ثمانين ، كذلك الحديث الصحيح الذي رواه أهل السنن : (من شرب فاجلدوه ، ثم إن شرب فاجلدوه ، ثم إن شرب فاجلدوه ، ثم إن شرب فاجلدوه) ؛ لأن لا فائدة في جلده ، ثلاث مرات نعاقبه ولا فائدة ، إذن خير له ولغيره أن يقتل ، وإذا قتلناه استراح من الإثم ، كما قال الله عز وجل : (ولا يحسبن الذين كفروا أنما

نملي لهم خير لأنفسهم إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين) .
” لقاءات الباب المفتوح ” (212 / المقدمة) .

والله أعلم